كلمات وخواطر

من وحي تجربتي في التدريس

محمد الحسين نخوا

الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، أحمده حمدَ الشاكرين، والصلاة والسلام على معلم البشرية، سيدنا محمد، وعلى آلـه وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـد: فهذا تقييد يطلع به الناظر على كلمات من وحي تجربتي المتواضعة في التدريس، جعلتها تذكرة لنفسي ولمن شاء الله أن يطالعها من المحبين والراغبين، عسى أن يجدوا فيها بعضا مما يفيدهم أو ينفعهم.

وقد أحببت أن أدون هذه التجارب منذ التحاقي بسلك التدريس، فكنت كلما مرت بي تجربة أسجلها في دفتر، ثم عرضت ذلك على بعض أساتذتي الفضلاء فاستحسنوا الأمر، وشجعوني على الكتابة، فكان لتشجيعهم أثر عظيم في حثي على الاستمرار، وكان من ثمرات ذلك:

_ جمع **20** فكرة من تجربة السنة الدراسية الأولى: 1435هـ/ 2013/ 2014م بثانوية أم الربيع أحد بو موسى نواحي إقليم الفقيه بن صالح.

_ جمع **30** فكرة من وحي الممارسة التربوية في الموسم الدراسي الماضي 1436 هـ / 2015م. بالمؤسسة نفسها.

وفي هذا الجزء تتمة لتدوين أفكار وتجارب أخرى استقدتها من الأيام التي هي أعظم من يعلم الإنسان، يقينا مني بأهمية الكتابة والتدوين، لأن الكتابة قيدٌ للمعلومات والتجارب مهما كانت، حتى لا تضيع وينسج عليها مرور الوقت نسجا من الإهمال وخيوطا من النسيان.

ولم ألتزم فيما دونته في هذا الجزء وفي الجزأين السابقين بترتيب أو تصنيف معين، وإنما أذكر ما حضرني من الأفكار والتجارب حسب الإمكان.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أسأل الله أن ينفع بهذا الجزء كما نفع بالجزأين قبله، وأن يجعل جميع أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

وحرر ببني ملال (المملكة المغربية) يوم الأحد 27 رمضان المعظم 1437هـ الموافق لـ: 3 يونيـــو 2016م.

ذ. محمد الحسين نحُّوا/ مدرس مادة التربية الإسلامية بالتعليم الثانوي التأهيلي.

mohamed.nahhou@gmail.com

شبكة الألوكة www.alukah.net

كلمة للأستاذ المحترم محمد ويلالي بعد اطلاعه على هذه الكلمات:

جادت قريحة أستاذنا الكريم محمد ويلالي بكلمة بعد اطلاعه على هذه التجربة المتواضعة، فرأيت من المفيد أن أجعلها بين يدي كلماتي لعلها تشفع لها عند القراء، شاكرا له ما تفضل به من الملحوظات الدقيقة، وهذا نص كلمته:

المفضال: سيدي محمد نحوا ـ حفظه الله ـ

هذه سنة حميدة أرجو أن تتعهدها سنة بعد سنة بالتنقيح والتهذيب، فهي جديرة بأن تثوي في كتاب أنيق يعتبر عصارة سنوات العمل في مهنة التدريس

لا تعليق، فالملحوظات وجيهة، والأسلوب راق، والألفاظ منتقاة بعناية، والفصاحة بادية، والخلو مما يكدر الكتابة من أخطاء لغوية أو تركيبية واضح

غير أني أراك لم تضع بعد مبضعك السديد على مكان الألم، بعد أن طوفت في أسباب تدهور تعليمنا، وإن ألمحت إليه من قريب في البند السابع والعشرين، وأحسب الداء كامنا في عنصر واحد، يتبدى لي عيانا في تجربة جمعية الحافظ مع طلبتها، حين كان التعاقد على طلب العلم وجهَ الله، فالطالب يتعلم لله، والأستاذ يدرس لله، والإدارة تجتهد تبغي وجه الله، إنه الإخلاص في العمل بعد الرضى بهذا العمل، هذا هو الحافز، هذا هو الدافع، هذا هو المحرك، ولعلك لاحظت في أول سنة تقدم فيها الطلبة لامتحان الباكالوريا، نجحوا جميعهم بدون استثناء، وبدرجات أدهشت الوزارة نفسها، التي ترى طلبة يقضون ست سنوات في التعليم، ولم يلجوا المؤسسة العمومية إطلاقا، يحصلون على نتائج ما سبقت في تاريخ الجامعات المغربية. والسؤال: كيف نحقق الإخلاص في تعليمنا، فنكون رساليين في أداء واجبنا؟ والله أعلم.

في الملحق ثلاثون ملحوظة من ملحوظات التداريب الميدانية، لعلها تفيد. والسلام عليكم ورحمة الله.[1]

[1] قد جمع أستاذنا محمد ويلالي في هذا الملحق ثلاثين ملحوظة من ملاحظات التداريب الميدانية المفيدة التي جمعها في أثناء إشرافه على الأساتذة المتدربين في شعبة التربية الإسلامية بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بمدينة مراكش المغربية، وهو معروف بملحوظاته الدقيقة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

1_ أحب أن أبدأ خواطري هذه بكلمة عن الامتحان، وأنا أراقب المتعلمين وهم يُمتحنون، وأصحح أوراق الممتحَنين، أقول فيها:

آن الآوان أن نعيد النظر في طريقة التقويم والامتحان، فطريقة الامتحان والتقويم في بلادنا تحتاج إلى تقويم، وهذا الأمر انتبه إليه المربون والمعلمون في بلاد عربية أخرى، ومن ذلك ما كتبه الأديب الكبير الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله في أحد كتبه التي لا أذكر اسمها الآن[2].

يقول: (وأنا من أكثر من نصف قرن أكتب عن الامتحان، أقول: فتشوا عن طريقة أخرى تسد مسده، وتقوم مقامه، فإنه ليس المقياس الصحيح.

ولقد عرضوا مرة مائة ورقة على مدرس ليقدر ما تستحق من الدرجات، فقدرها، ثم عرضوها عليه بعد حين، فاختلف التقدير، وكلفوا مرة أستاذا كبيرا أن يكتب هو الجواب الصحيح الكامل، فكتبه فبدلوا فيه قليلا، وكتبوه بخط آخر وعرضوه عليه بين الأوراق فأعطاه درجة فوق الوسط.

ويختلف حكم الأستاذ على الجواب باختلاف حاله: رضا وسخطا، وانبساطا وانقباضا، وقد يرى الغلطة الصغيرة حينا، ويمر حينا آخر بالكبيرة فلا يراها، وإن كان في خصام مع زوجته، قد هاجت أعصابه وفسد مزاجه، ظهر ذلك في ميزان حكمه على أوراق الطلاب).

إن كلام الشيخ علي الطنطاوي فيه وصف دقيق لحال الامتحان في وقته وفي وقتنا الحاضر كذلك، سواء في كيفية وضع أسئلة الامتحان، أو في طريقة التصحيح، وسأسمح لنفسي هنا أن أقترح بعض الخطوات التي أرى أنها ربما تسهم في تقويم ما اعوج من أمر الامتحان والتقويم:

- ✓ ينبغي أن نغرس في قلوب الناشئة أن يتعلموا من أجل تحقيق مقاصد وغايات التعلم، وأن لا يتعلموا من أجل الامتحان، فالامتحان وسيلة، لا ينبغي أن ينقلب إلى غاية.
- ✓ ينبغي أن نغرس في أذهان المتعلمين أن الخوف من الامتحان كملح الطعام، الكثير منه يفسده، والقليل منه يجعل مذاقه جيدا أو مستساغا، لأن قليل القلق من الامتحان يحفز المتعلم على الدراسة والاجتهاد ويجعله أكثر حرصا على التفوق.

أما المتعلم الذي لا يشعر أصلا بالامتحان ولا يبالي به جملةً، فغالبا لا يحقق نتائج جيدة في الامتحان [3].

---

[2] نقلت هذا النص وأنا أطالع كتابا من كتب الشيخ علي الطنطاوي قبل سنتين، ونسيت أن أدون اسم الكتاب ورقم الصفحة، ولأهمية النص وعلاقته بالموضوع أوردته هنا، وعسى أن أقف مرة أخرى على مصدره فأثبته.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

- ✓ ينبغي التفكير في طريقة منسجمة لصياغة أسئلة الامتحانات، وتلك الطريقة ينبغي أن يتفق عليها واضعو الإطار المرجعي للاختبارات مع المفتشين والمدرسين.
- ✓ نحتاج إلى أن نقوم المتعلم تقويما عادلا لا نحس ولا يحس فيه بظلم، وأن نراجع تقويمنا، فربما يحتاج إلى تقويم، إذ ليس في يد المصحح ميزان الذهب، وإنما هو اجتهاد قابل للصواب والخطأ، كما سبق في كلام الشيخ علي الطنطاوي.

2_ الغش من أكبر معاول الهدم في المجتمع، هكذا أريد أن أتحدث عن الغش بصفة عامة، وما الغش في الامتحانات إلا جزء من كل فشا وذاع حتى نخر جسم مجتمعنا، وإن تعجب فعجب من حالنا مع هذا الغـش !، لا نكاد نتحدث عنه إلا في أيام الامتحان.

كيف نقنع المتعلم بأن الغش خصلة ذميمة وهو يعيش مع الغش صباح مساء؟ يرى صنوفا من الغش منذ نعومة أظفاره، سواء في البيت، أو في المجتمع، أو في المدرسة.

إننا نحتاج إلى أن نقطع مع الغش من أصله، ولن يتأتى ذلك إلا بمحاربته أينما كان، وتلك معركة لن يصمد فيها إلا فئة قليلة من الناس.

ومما له علاقة بموضوع الغش في الامتحان، هذا السؤال الوجيه الذي طرحه أستاذي المحترم كمال وجاد في إحدى مختاراته التربوية قائلا: (كيف أحدُّ من ظاهرة الغش تحقيقا لمبدأ تكافؤ الفرص دون مساس بحق المتعلم في الأمن النفسي أثناء اجتياز الاختبار؟، تلكم المعادلة التي تظهر شاخصة كلما وطئت حجرة التقويمات الإشهادية).[4]

3_ كثر الحديث في عامنا هذا عن ضرورة إصلاح التعليم، وتحدث من تحدث، وكتب من كتب، واختلف الناس في ذلك اختلافا كثيرا وسُودت الصحف بمداد يحكي فصولا من معركة لا ينتهي مشهد منها إلا ويستعد الناس لمشهد آخر، ولما تأملت ذلك وجدت أننا نعاني من فوضى في إصلاح التعليم لا نجد لها مثيلا لدى الأمم الأخرى، فقد جربنا منذ الاستقلال تجارب الغرب والشرق ونظرياته في التعليم، ولم نفلح في ذلك، وكم أُنفق من أموال، وأُهدرت من جهود، ولم نحصد إلا العلقم والشوك.

---

[3] قد فصلت الحديث في أسباب الخوف من الامتحان لدى المتعلم في مقال عنوانه " الخوف من الامتحان عند الطلبة" في الجزء الأول من مذكرتي، ص: 73_ 74_ 75، وإن كنت قد تحدثت عن أسباب الخوف من الامتحان عند طلبة التعليم العتيق، إلا أنها تتشابه عند جميع المتعلمين.

4 مختارات تربوية، للأستاذ الفاضل كمال وجاد، مفتش مادة التربية الإسلامية بمديرية إقليم قلعة السراغنة، رقم: 14.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وعند البحث عن أسباب هذا الفشل وتنقيح مناط ما يصح أن نعلل به تأخرنا في الإصلاح استوقفني هذا السؤال الذي لم أجد له جوابا وهو: هل حقا أريد لنا أن نصلح التعليم؟

أعلم أن الجواب واضح وضوح الشمس عند دهاة السياسة الذين ابتُلينا بهم، وأعلم علم يقين أن في بلدنا العزيز رجالا ونساء لهم غيرة على التعليم، ولهم قدرة على ابتكار واقتراح أسباب الإصلاح الحقيقي للتعليم، ولكن لا أحد يستشيرهم، وإذا استُشيروا لا يُسمع رأيهم، وتلك طامة كبرى إذا أسند الأمر إلى غير أهله.

4_ تمنيت لو سمعني القائمون على أمر التعليم في وطني لأقول لهم: إنه لا تنقصنا الأفكار والتصورات والنظريات في شأن إصلاح تعليمنا الهزيل، ولكن ينقصنا شيء واحد، وهو أن نحدد خطة واحدة نسير عليها، وطريقا واضحا نمشي كلنا فيه، نتفق أولا ونعرف ما ذا نريد وما ذا لا نريد، ومن أين نبدأ وإلى أين ننتهي.

نحتاج إلى تعليم يستجيب لحاجة مجتمعنا، بعيدا عن ما يريده منا الشرق أو الغرب، فقد أثبتت لنا التجربة القريبة والبعيدة أن الآخرين لن يرضوا عنا ولو انسلخنا من جلودنا... فهل من معتبر ومدكر؟!

5_ أتعجب لما ذا لا نتقبل النقد ولا نستسيغ العتاب فيما نأتي ونذر، سواء في ميدان التدريس أو في غيره من شؤون الحياة؟

إن سنة الحياة وضرورة التجديد والتقدم تحتاج إلى النقد، ولو كان أحيانا يتضمن بعض الحدَّة، ما دام أن الغرض منه هو الإصلاح والسعي نحو الأفضل والرقي بالمستوى.

ومشكلة معظم الناس أنهم يفضلون أن يدمرهم المديح، ولا يقبلون أن ينقذهم النقد أو القدح. فالقسوة في النصح ليست دائما مذمومة، لأن بعض القلوب الطيبة تقسو على من تحب زيادة في الرغبة والحرص على الخير، فعلى المرء أن يستفيد من ملاحظات غيره، ولو كانت بطريقة غير مهذبة، فربما وراء تلك القسوة حب عميق، ولا يكن أحدنا كالذي كسر ساعة منبهه، ولم يكن لها من ذنب سوى أنها أيقظته.

6_ نفور المتعلمين من المدرسة له أسباب كثيرة في نظري، ومنها أن النموذج التقليدي لم يَعُد يساير تطلعاتهم، خاصّة في ظلِّ التطوّر التكنولوجي الهائل الذي يعرفه العالم، هذا التطور الذي يُتيح للمتعلمين طرائق شتّى للتعلّم، بعيدا عن النموذج المدرسي الكلاسيكي.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

7_ كنا نسمع أساتذتنا _جزاهم الله خيرا _ يقولون: فهم السؤال نصف الجواب، وأنا أقول: حسن السؤال يعين على فهم السؤال، من أجل الوصول إلى نصف الجواب المنتظر، وقد أفادتني التجربة في القسم مع المتعلمين أن إغفال المدرس حسن صياغة السؤال قد يوقعه في سلبيات كثيرة، من أهمها:

- ✓ إضاعة الوقت، حيث يضطر إلى إعادة السؤال أكثر من مرة، ويلجأ إلى البحث عن صيغ أخرى حتى يُفهم المتعلم قصده من السؤال، وبذلك يضيع له من وقت الدرس ما هو في أمس الحاجة إليه.
- ✓ أنه قد يسمع ما لا يحب سماعه من المتعلم في هذه الحالة، كأن يسمع هذه العبارات التي لا يود كثير من المدرسين سماعها: أعِدْ السؤال أيها الأستاذ، أو: لم أفهم سؤالك أيها الأستاذ، أو: لم أسمع السؤال أيها الأستاذ.

ومن درر كلام أستاذي كمال وجاد في هذا السياق قوله: (قد يكون للصمت الذي يعقب سؤالا دقيقا صخب أشد من صخب الجواب ذاته، فاحرص على دقة السؤال وقراءة لحظة الصمت)[5].

- ✓ أنه قد يأتيه جواب غير متوقع، فيُخرجه من سياق الدرس إلى درس آخر، أو قد يفتح على نفسه بابا يصعب إغلاقه.

وما زلت أكرر نصيحة للمدرسين قلت فيها: " لا تفتح على نفسك في الدرس أو خارج الدرس بابا يعُييك سدُّه".

من أجل هذا كله ينبغي العناية بضبط السؤال وحسن صياغته، وتجنب توجيه الأسئلة المفتوحة، أو الغامضة في الدرس كأن يسأل المدرس تلاميذه قائلا: ما ذا تفهمون من النص؟، أو: ما ذا يعني لكم هذا؟ وما أشبه ذلك، ولْيُقَسْ ما لم يُقَلْ، كما قال ابن مالك في ألفيته.

8_ أشفقت على بعض الأساتذة الذين يرهقون أنفسهم بكثرة الكلام ورفع الصوت في الدرس، ولا يكاد يترك الفرصة للمتعلم ليتكلم، وقد تذكرت أستاذا لنا في الجامعة ذكره الله بخير، كان يتكلم ساعتين أو أكثر، ولا يسمح لنا في الحصة إلا بسؤال يتيم، فلما علمنا أنه لا يرغب في السؤال تركنا سؤاله، ولك أن تتخيل التعب الشديد الذي يلحق من يتكلم ساعتين أو أربع دون توقف.

---

5 مختارات تربـوية، للأستاذ المحترم كمال وجاد، رقم: 9.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولو سلك الأستاذ طريقة الحوار في الدرس لكان أحسن وأجدى نفعا، ولهذا أرى أن أحسن طريقة تريح المعلم والمتعلم معا هي أن يتوسط المدرس في الدرس ويحول درسه إلى سلسلة من الأسئلة التي نفضي إلى بناء الدرس مع المتعلمين، وليحذر أن يستدرجه المتعلمون إلى متاهات في الدرس لا يستطيع هو أو لا يستطيعون هم الخروج منها، والموفق من وفقه الله.

9_ أفادتني تجربة التعامل مع المتعلمين أن شيوع الأخطاء اللغوية عند كثير منهم، لها أسباب كثيرة، منها:

- ✓ سكوت بعض المدرسين عليها، زاعمين أنهم ليسوا مسؤولين عنها، ويريحون أنفسهم بإلقاء اللوم على غيرهم، وما أسهل سلوك هذا السبيل!
- ✓ ومن أسبابها كذلك اعتماد اللهجة العامية في التدريس لدى معظم المدرسين على مذهب الإمام عيوش![6]

10_ تأملت في أسباب ضعف مستوى التعلم لدى المتعلمين، فوجدت أنه راجع في معظمه إلى خلل في المراحل الأولى من مراحل التعليم، لذلك كان أولى الأوليات، أن نعتني جميعا بمرحلة التعليم الابتدائي، ولن يتأتى ذلك إلا بالعناية بمربي الأجيال الذين هم عماد بناء هذه المرحلة المهمة في حياة المتعلمين، فمعلم الابتدائي رجلا كان أو امرأة هو أساس البناء، والبناء " لا يقوم ولا يُنتفع به إن لم يحمله أساس متين غائض في الأرض، والأساس لا يُرى، ولكن البناء لا يقوم إلا عليه، هذا الأساس هو التعليم الابتدائي، لا يراه الناس على حقيقته ولا يقدرونه قدره.."[7].

11_ علمتني تجربة التدريس أن على المدرس أن ينتقي من آراء الآخرين وتجاربهم ما يناسبه، وكل أستاذ خبير نفسه وفقيه حالته، ولا ترهق نفسك بالمقارنات التي لا تنتهي، لأنه كلما اتسعت عينك ضاق صدرك.

وهذه من روائع التربية القرآنية الواردة في قوله تعالى من سورة طه: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴿١٣٩﴾ ﴾

---

6 نور الدين عيوش، رجل مغربي صاحب الدعوة المشهورة إلى اعتماد اللهجة الدارجة في التعليم الأولي بالمغرب، وهو أيضا عضو المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، وقد أثارت دعوته كثيرا من الجدل.

7 ذكريات الشيخ علي الطنطاوي، ج: 3، ص: 263 دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى 1406هـ _ 1986م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتحضرني في هذا المقام قصة الثعلب والجمل عنوانها: رُكبة الثعلب وركبة الجمل، وخلاصتها أن رواة الحكايات الحكيمة زعموا أن ثعلبا سأل جمَلا واقفا على الضفة الأخرى من النهر: إلى أين يصل عمق ماء النهر؟ فأجابه الجمل: إلى الركبة. فقفز الثعلب في النهر ثقةً بظاهر كلام الجمل، فإذا بالماء يغطيه ويكاد يُغرقه، وسعى جاهد أن يخرج رأسه من الماء، وما أن استطاع أن يقف على صخرة في النهر، والتقط بعض أنفاسه اللاهثة حتى صرخ في وجه الجمل غاضبا قائلاً: ألم تقل إنّ الماء يصل إلى الركبة؟ فقال له الجمل بهدوء: نعم قلت لك إنه يصل إلى الركبة وقصدت ركبتي! والمغزى من القصة أنه حينما نستشير أحدا في أمور حياتنا فهو يجيبنا برأيه حسب تجاربه التي نفعته، والأمر كذلك ينطبق على تجارب الآخرين، فكثيراً ما تكون أجوبة الآخرين أو تجاربهم مناسبة لهم فقط وقد لا تناسب غيرهم، فليُعتبر بهذا فإنه جد نفيس وقلما يُنتبه له.

وتحضرني أيضا حكمة قريبة من هذا المعنى، وهي: " محاولتُك الصعودَ بنفسك أعظمُ بكثير من انتظارك لأحدهم أن يرفعك".

12_ قاعدة " لكل مقام مقال" من القواعد التي يجب أن يستحضرها المدرس دائما في حياته حتى يحقق التوازن في عمله، فلا يطغى عنده شيء على آخر.

وتأسيسا على القاعدة المذكورة أكره لنفسي ولغيري من المدرسين أن يكون موضوعُ حديثهم كلما جمعهم مجلس من المجالس الحديثَ عن التدريس ومشاكله التي لا تنتهي، وخاصة إذا كان المجلس مجلسا عاما، وأحب شيء إلى نفسي في مثل تلك المجالس العامة أن يصغي الإنسان ويطيل السكوت ويقارن ويحلل، فإذا رأى أن المصلحة في الكلام تكلم وأفاد، وإلا سكت فهو خير له ولغيره، ورحم الله من قال خيرا فغنم، أو سكت عن لغو فسلِم. وما يعقل ذلك إلا العالمون!

13_ علمتني تجربة التدريس أن التواضع يرفع قدر صاحبه ويمنحه القبول، وأن التكبر داء قاتل يُزري بصاحبه ويجعله ممقوتا.

وللتواضع صور كثيرة في ميدان التدريس، أكتفي بإيراد أهمها:

- ✓ احترام وقبول رأي غيري، سواء كان مدرسا أو متعلما، صغيرا أو كبيرا، وعدم الاستبداد بالرأي.
- ✓ إعطاء الفرصة للمتعلمين للتعبير عن آرائهم بكل حرية.
- ✓ الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

- ✓ الاستفادة من تجارب الآخرين، وشكرهم على نصائحهم وتوجيهاتهم.
- ✓ الصبر على الأذى بجميع أنواعه.

والخلاصة أنه لا يتواضع إلا كبير وعظيم، ولا يتكبر إلا حقير ولئيم، فقد تعلمنا في الحقل أن السنبلة الفارغة ترفع رأسها، وأن الممتلئة تخفض رأسها.

14_ علمتني التجربة في التدريس أن الأماني لا تغني شيئا إذا لم يكن معها عمل، وشتان بين من يشتهي ويتخيل، وبين من يعزم ويعمل، فالأول يعيش غالبا في الوهم والسراب، والثاني يتفيأ ظلال الواقع والحقيقة.

ومن الحكم التي تحضرني في هذا المقام قول بعض الحكماء: لا تكن كمن عاش شطر حياته الأول يشتهي الشطر الثاني، وعاش شطر حياته الثاني آسفا على ضياع شطر حياته الأول.

ويقول أمير الشعراء أحمد شوقي:

وما نيل المطالب بالتمني ** ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وما استعصى على قوم منال ** إذا الإقدام كان لهم ركابا

وما أكثر ما تمنينا وتخيلنا في مدرستنا من الأماني والخيالات الجميلة! لكننا لم ننتفع إلا بما عملته أيدينا.

15_ من أعظم ما وقفت عليه عمليا ورأيته من أسباب نجاح المرء في عمله هو أن يحب الإنسان عمله، ويفرح به، ويعطيه ما يستحق من العناية، دون إفراط أو تفريط، فذلك سبب عظيم وسر كبير من أسرار النجاح في العمل.

أما أن يكره الإنسان عمله ويتثاقل في إنجازه، فإني أراه من أسباب التعاسة والشقاوة والعذاب.

وهاهنا أمر في غاية الأهمية يجب الانتباه إليه وهو أن الاعتياد مميت للإحساس قاتل للشعور، فمثلا كره الإنسان لعمله قد يكون مرة أو مرتين في بداية الأمر، ولكن لا ثلبت ممارسته له أن تصبح عادة محكمة، فيعيش الإنسان شقيا في عمله، ظالما لغيره، بعد أن مات عنده الإحساس.

وقد انتبه الإعلام المعاصر لهذه الحقيقة فأصبح تكوين العادة من الأصول التي يعتمد عليها في الإعلان الحديث لترويج سلعة معينة قد يراها الناس في بادئ الأمر غير ضرورية، أو حتى ممجوجة مستقبحة، ولكنها لا تلبث بحكم العادة والإلف أن تصبح مستساغة، بل من اللزوميات لا غنى عنها، وقُل ذلك في عالم الأفكار..

www.alukah.net اهداء من شبكة الألوكة

16_ من الأخطاء التي نقع فيها من حيث ندري أو لا ندري أن نربط إنجاز بعض الأعمال بأشخاص معينين، وهنا نسقط في سلطة النموذج الوحيد الذي لا يتكرر، فإذا غاب هذا الشخص أو أصابه الملل توقف العمل.

وتلك من الأخطاء التي ورثناها عن بعض أسلافنا، فتجد أحدهم يصف بعض العلماء أو المصلحين ويخلع عليهم ألقابا فيها من الإغراق في المبالغة ما فيها من قبيل: خاتمة المحققين، وخاتمة المجتهدين..، وإنه لمن أقبح العيوب أن نحسن تمجيد البطل ونعجز عن محاكات بطولته التي بها استحق أن يكون بطلا.

17_ ومن وحي التجربة أشير إلى أهمية العمل الجماعي التشاركي الذي تتلاقح فيه الأفكار ولا يستبد فيه طرف برأيه، وكم خسرنا بسبب الاستبداد والانفراد بالرأي، سواء في القسم مع المتعلمين، أو مع غيرهم ممن تجمعنا بهم علاقات! ونحن دائما في أمس الحاجة إلى التعاون البنَّاء بين جميع مكونات هذه الأمة، وخاصة بين العاملين في ميدان التربية والتعليم، وما زلت أقول وأكرر: إن الاختلاف في الرؤى والتوجهات والقناعات الشخصية لا ينبغي أن يكون عائقا من عوائق التواصل والتعاون بين الجميع، وقد أثبتت التجربة أن العناية بالقواسم المشتركة بين العاملين في أي ميدان أولى وأفضل وأنفع من الإغراق في الجزئيات والفروع التي شتت الجهود وأضاعت كثيرا من الفرص.

18_ ومن وحي تجربتي في التدريس استفدت أن أي مجموعة بشرية يجمعها عمل معين هي مثلُ أسرة كبيرة، قد ترتفع فيها الأصوات أحيانا، وقد يختلف أفرادها أحيانا، سواء فيما بينهم أو مع من يسوس أمر الأسرة، وهو اختلاف طبيعي تقتضيه أسباب ذاتية وأخرى موضوعية، وإذا كان الأمر كذلك فيجب أن " نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا عليه"، ولا يضيق بعضنا برأي غيره المختلف معه، ما دام أن غاية الجميع غايةٌ شريفة، وهي في أسرتنا هاته خدمة المتعلمين والمتعلمات.

ومن رام جعل الناس سواءً فليس لحمقه دواء، ومثله مثل من ينفخ في رماد أو يصيح في واد.

ولله در الشاعر العربي حين قال:

إذا أبصرتَ في الأصحاب عيبا ** فلا تغفل عن الشيم الحسان

تريـــد مهـذبا لا عيب فيــــه ** وهل عـودٌ يفـوح بلا دخان

شبكة الألوكة www.alukah.net

19_ علمتني التجربة أن من شروط نجاح المدرس في قسمه وخارج قسمه: أن يكون حذرا دون غلو، ومتيقظا بتوسط، مقدرا للمواقف وما يترتب عليها من تداعيات في كل الحالات التي تعرض له، وهذا الشرط أجزم أنه لن يتأتى للمدرس إلا بعد تجربة في الميدان.

فعلى المدرس أن يتميز بقدر كبير من الذكاء والحكمة، لأن المهمات الصعبة، كالتدريس تحتاج إلى سرعة الذكاء والفطنة والحكمة، حتى يحسن المرء التصرف السليم، إبان الظروف الصعبة والمواقف الحرجة، وما أكثر هذه المواقف التي تصادف المدرس في عمله، لأنه يتعامل مع أصناف متباينة من الناس.

ولنا في سيد المعلمين رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة والمثل الأعلى في كيفية التعامل مع أصناف مختلفة من المخاطبين، كما هو واضح في سيرته العطرة، سواء قبل البعثة أو بعدها.

20_ من الأعراف الفاسدة التي انتشرت في مدارسنا اليوم أن التوجه لدراسة الأدب لا يختاره إلا ضعاف المتعلمين في التحصيل، وأن الشعب العلمية لا يتوجه إليها إلا ثلة من النبهاء والمتفوقين، وتلك آفة من آفات انفصال العلوم التي استقرت في أذهان كثير من الناس.

ومن عجيب ما وقفت عليه في مدرستنا هذا العام_ وأنا ذاهب إلى القسم صباحا _أن تلميذة من الشعبة العلمية عيرت زميلتها من الشعبة الأدبية بأنها اختارت التوجه الأدبي قائلة لها: أنت لا يحق لك الكلام لأنك أدبية فبكت المسكينة وندبت حظها، فشرحت لهما الأمر وبينت لهما أن التفاضل يكون بالاجتهاد والتميز سواء في الأدب أو في العلوم، وقلت لهما: سأرى في نهاية الموسم الدراسي من منكما ستحرز قصب السبق، فكان أن حصلت التلميذة الأدبية على نتائج أفضل من أختها العلمية التي عيرتها ولامتها على اختيارها، فليُعتبر بمثل هذا ولا يُلجأ إلى التفاضل بين المتعلمين بأمور لا تصح، وليجتهد كل متعلم في تخصصه الذي اختاره، وليكن اختياره مؤسسا على أسس صحيحة.

21_ أفادني البحث في أسباب انحراف بعض المتعلمين، أن من أهم أسبابه غياب دور الأسرة وترك الحبل على الغارب، فالأسرة تقع عليها مسؤولية عظمى في حماية الناشئة من الانحراف، وعلاج ما يعتريهم من اعوجاج وخطأ في سلوكهم، وميل عن الصواب.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأساس التربية القدوة الحسنة من الأبوين، لأنها تعليم عملي يغرس القيم النبيلة في نفوس الناشئة منذ صغرهم، كما قال الشاعر العربي:

مَشَى الطاووسُ يوماً باعْوجاجٍ ***** فقلدَ شكلَ مشيتهِ بنوهُ
فقالَ علامَ تختالونَ؟ قـالوا: ***** بدأْتَ به ونحنُ مقلّـدوهُ
فخالِفْ سيركَ المعوجَّ واعدلْ ***** فإنا إن عـدلْتَ معدلـوه
أمَا تدري أبانا كـلُّ فـرعٍ ***** يجاري بالخُطى من أدبـوه؟
وينشَأُ ناشئُ الفتيانِ منا ***** على ما كان عوَّدَه أبـــوه

22_ من أخوف ما أخافه في أي عمل، وفي التدريس والتربية خاصة: المثبطون للعزائم، وما أكثرهم في كل زمان ومكان، وإن تعجب فعجب من حالهم حين يأتونك في صورة الناصح الأمين، وليس نصحهم إلا تثبيطا للعزائم، وقد أوقفتني التجربة على أمثلة كثيرة من هذا الصنف، وفي تجاهلهم وحسن التخلص منهم بأدب أفضل وسيلة لتوقي الوقوع في شرَكهم.

23_ الابتسامة سر من أسرار نجاحنا في أعمالنا، فياليتنا ندرك أن تبسمنا في وجه الآخرين أندى على قلوبهم من كل ما نقضيه لهم من حوائج بوجوه عابسة، وكأننا نعطيهم شيئا من لحومنا!

ليتنا نعلم أن الكلمة الطيبة نباسط بها الإنسان وندخل السرور على نفسه خير له وأبرد على قلبه من العطية الجزيلة مع النظرة القاسية.

24_ أفادتني التجربة في العمل أن إهمال المواعيد أصبح اليوم قاعدة وبئست القاعدة، وأن الذي لا يخلف الوعد ويحرص على ضبط الوقت مع نفسه ومع غيره أصبح استثناء، وكم ضاع من حقوق بسبب إخلاف المواعد والاستهتار بالوقت الذي هو ظرف لأي عمل كبر أو صغر، ولو جاز لأمة أن تهمل المواعيد في حياتها وتتراخى فيها، لما جاز للمسلمين أن يهملوا مواعيدهم ويصابوا بعلة التسويف وإضاعة الوقت، لأن ديننا يقوم على مواعيد مضبوطة ضبطَ الدقائق والثواني، وتأمل هذا في جميع شعائر ديننا الإسلامي العظيم تجدْه حاضرا بارزا، فالصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا، والصيام في أيام معدودات معلومات، والحج أشهر معلومات، وهكذا في كل تعاليم ديننا وشعائره، وما ذلك إلا لنتعلم الضبط والنظام، فما لهؤلاء المسلمين اليوم صاروا مضرب المثل بين أمم الأرض جميعا في إخلاف المواعيد وإضاعة الأوقات؟!

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

25_ علمتني تجربة التدريس أن احترام المتعلمين للمدرس إما أن يكون تصنعا وتكلفا، وقد يكون اختيارا واقتناعا.

فأما احترامهم له تصنعا وتكلفا فيكون إما خوفا من سطوة المدرس، أو رغبة في نيل مصلحة، وهذا احترام لا يلبث أن يزول حينما يزول سببه.

وأما احترامهم له اختيارا واقتناعا فله أسباب، من أهمها في نظري احترام الأستاذ للمتعلمين وحبه الخير والنفع لهم، وحسن تواصله معهم، وهذا دواء مفيد وعلاج نافع يستطيع به الأستاذ أن يضبط قسمه ويريح نفسه من كثير مما يشتكي منه غيره، ولله در الشاعر العربي إذ يقول:

ومن العجائب والعجائبُ جمّةٌ *** قربُ الدواء وما إليه وصول

كالعيس في البيداء يقتلها الظما***والماء فوق ظهورها محمـــول

فإن قلت: وما مناسبة إيراد البيتين هنا؟ أقول: مناسبة إيرادهما أن على الأستاذ المربي أن يأخذ دائما بأسهل الطرق وأفضلها في تعامله مع أبنائه المتعلمين، وبذلك يكسب قلوبهم ويضمن ودهم.

26_ قلت وما زلت أقول: إن بيننا معاشرَ المدرسين وبين أبنائنا المتعلمين أسباب كثيرة لبناء الثقة الكاملة التي أوهنتها الأيام، فما شئت من أواخ تشد بعضها إلى بعض، ووشائج تجعل بعضها من بعض، وما شئت من رابطة المعرفة، بل وما شئت من جميع المقَرِّبات التي توحد بين قلوبنا، وتؤلف بين أرواحنا، وتؤاخي فيما بين نفوسنا.

إن المعلم والمتعلم هما جناحا أي إصلاح وتجديد في المجتمع، ولا يمكن للمجتمع أن يحلق إلا بهما معا، وإن كل من يريد أن يوقع بينهما، أو يوقد نار الصراع والخلاف بينهما، فهو ساع إلى الهدم، وسعيه مؤذن بشرٍّ مستطير وفساد عريض جنينا ونجني ثمراته المرة.

لذلك فمن مصلحة الجميع الحرص على إعادة اللحمة وبناء جسور الثقة بين الأستاذ والمتعلم، وهنا أود أن أهمس في أذن أساتذتي وتلاميذي وأقول لهم مقالةَ مكوي الفؤاد الحريص عليكم حرصَه على نفسه: إن أي مشكل أو أي ألم مهما قوي ومهما كثر، فليس يدخل إلى قلوبنا، إلا إذا أدخلناه إليه برضائنا، وقبلناه باختيارنا، وأضرب لكم مثالا بقائد البلد أو الجيش قد يساعد عدوه من حيث لا يشعر إذا ترك ثغرة في سور حصنه، فيدخل منها العدو، فكذلك حالنا مع كل من يتربص بنا لإفساد علاقتنا بأبنائنا المتعلمين إذا أعطيناه الفرصة وأهملنا مراقبة دسائسه، تسلل إلينا واستطاع أن يوقع بيننا فخسرنا جميعا.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

27_ أتعجب من حال بعض المتعلمين الذين يعلقون تعثرهم وفشلهم على غيرهم، فمن قائل منهم عند فشله في امتحان، أو عند تعذر فهم درس عليه: إن السبب هو المدرس أو الإدارة، ومن قائل: إن السبب هم قرناؤه، ومن قائل: إن السبب يعود إلى الأسرة والمجتمع، وقليل منهم من يرجع إلى نفسه بالتوبيخ والعتاب، فيبدأ في إصلاح خلل نفسه وتجاوز تعثره.

وشبيه بهذا أيضا أن بعض المدرسين يرجعون كل أخطائهم إلى من حولهم من المتعلمين أو زملائهم في العمل، وهذا لا يستقيم، لأن الإنسان مسؤول عن تصرفاته واختياراته، ولا ينفعه أن يتهم الظروف ويتعلق بأوهن الأسباب.

يقول المفكر الكبير جورج برنارد شو[8] في إحدى حكمه المشهورة: (دائما ما يلوم الناسُ الظروفَ، ولكنني لا أومن بالظروف.. الناجحون في هذه الدنيا هم أناس يستيقظون في الصباح، ويبحثون عن ظروف مواتية، وإذا لم يجدوها صنعوها!).

28_ اعلم عزيزي الأستاذ[9] أن ما قد يبدو في أعيننا صغيرا أو حقيرا، قد يبدو لغيرنا من المتعلمين أمرا عظيما، فلا نبخسهم أشياءهم، كما جاء في التوجيه القرآني الخالد: (وَلاَ تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ). سورة هود، جزء من الآية:48.

يقول الأستاذ المحترم كمال وجاد: (تذكر دوما أن أعمال المتعلمين مهما بدت صغيرة، فهي في أعينهم إنجازات)[10].

فعلى الأستاذ أن يحسن التعامل مع المتعلمين وأن يفقه كيف يسوسهم، وذلك يتأتى بمعرفة كل أسباب كسب القلوب.

ومن وصايا المفكر الجزائري الشيخ محمد البشير الإبراهيمي للمعلمين قوله: (إنكم تجلسون من كراسي التعليم على عروش ممالك، رعاياها أطفال الأمة، فسوسوهم بالرفق والإحسان، وتدرجوا بهم من مرحلة كاملة في التربية إلى مرحلة أكمل منها..)[11]

[8] جورج برنارد شو (George Bernard Shaw) (ولد 26 يوليو 1856 - توفي 2 نوفمبر 1950)، مؤلف أيرلندي شهير. وُلِد في دبلن، ويعد أحد أشهر الكتاب المسرحيين في العالم، وهو الوحيد الذي حاز على جائزة نوبل في الأدب عام 1925 وجائزة الأوسكار لأحسن سيناريو (عن سيناريو بيجماليون) في العام 1938.

[9] الخطاب موجه للمذكر والمؤنث، لأن الأستاذ والأستاذة شقائق في الأحكام إلا ما استثني مما هو منصوص عليه في محله، والوضع اللغوي العربي صالح للمذكر والمؤنث، لكن جرى العرف اليوم بتنويع الخطاب لهما، حرصا على حق المرأة زعموا، فتجد مثلا في ورقة الأسئلة في أي امتحان: أجب/ أجيبي/ اكتب/ اكتبي/ علل جوابك/ عللي جوابك..

[10] مختارات تربوية، للأستاذ كمال وجاد، رقم: 33.

29_ تأملت في الدعوة إلى تجديد مادة التربية الإسلامية في المغرب أو في بلدان أخرى، فميزت في الموضوع بين منهجين: أحدهما يدعو إلى تجديد هذه المادة وذلك بتغيير مناهج التربية الإسلامية في التعليم وتحسين أسلوب تدريسها من أجل جعلها أكثر جاذبية وسلاسة وأنعِمْ بهذا التجديد، أما المنهج الثاني فيذهب أصحابه في التغيير والتجديد إلى أبعد مدى، وهو إفراغ هذه المادة من محتواها ومسخها وتلك طامة كبرى، وشتان بين المنهجين.

30_ مما يحدث لي كثيرا في الحصص الدراسية أنه تأتيني أفكار جيدة في أثناء الدرس غير تلك التي خططت لها قبل الحصة، وأفرح كثيرا بذلك وأحسبه إلهاما من الله تعالى يستوجب مني مزيدا من الشكر، لكن ينغص من فرحي بما ذكرت أنني لا أستطيع تذكر كل تلك الأفكار الجيدة والخواطر السانحة بعد الفراغ من الحصة، ولولا أني أخشى أن أخذ من وقت المتعلمين ما ليس لي بحق لتوقفت عند كل فكرة تخطر في أثناء الحصص حتى أكتبها خشية ضياعها.

[11] آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، 161/3.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

خاتمة

بعد الفراغ من تدوين الأفكار السابقة يمكن إجمال أهم الخلاصات الآتيـــــــة:

- كان الغرض من تدوين هذه الأفكار بعد انتهاء تجربة سنة دراسية تقويما للعمل داخل الفصل الدراسي، ونقدا للذات، بطريقة صريحة.
- بيان ما في تدوين هذه الأفكار والتجارب من الفوائد الكثيرة، سواء لي، أو لغيري ممن سيطالعها.
- انفتاح هذه التجربة على تجارب أخرى، وهي تجارب أعتز بها، وأشكر كل من أفادني فيها بقليل أو كثير، سواء من المدرسين أو من المتعلمين.
- لم أراع في التدوين ترتيبا معينا لتسلسل تلك الأفكار، لأن ذلك يحتاج إلى جهد آخر، ولا أرى له فائدة ذات شأن كبير في مثل هذا التدوين.
- قصدت بما دونت أن أدعو نفسي وغيري إلى أن نفتح أعيننا للعبرة والنظر، فنستفيد من أخطاء من أخطأ، ونتعلم من صواب من أصاب، ولن يؤثر ذلك في نظرتنا إلى أقدار أساتذتنا لخطأ بدر من أحدهم، لأن ذلك مغمور في بحر إيجابياتهم.
- لا يخفى أن هذه التجارب إذا لم تدون ستضيع، كما ضاعت تجارب أخرى لم يكتبها أصحابها.

هذا ولا أدعي العصمة أو الكمال لهذه التجربة، وحسبـي أنني حاولت أن أنقل من خلالها ما عشته، وغلب على ظني أنه يمكن أن يفيدني، أو يفيد غيري.

وألتمس في الختام من كل من يطالع ما سطرته وحررته، أن يصحح ما يقف عليه فيه من خطأ أو زلل، ورحم الله من أهدى إلـــي عيوبـــي، وأسأل الله في البدء والختام أن يجزي عني خير الجزاء كل من أفادنـــي من قريب أو بعيد في هذه التجربة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.